مقتطفات من كتابات

الأديب الراحل الدكتور جميل جبر

لمناسبة حفل تكريمه

٢٣ آب ٢٠١٣

بيت شباب

قاعة محاضرات مستشفى المعهد اللبناني

ما أردتُ الحياةَ لوحةً أتفرجُ عليها متثائباً، ولا سلسلة صدئة أعُدُّ حلقاتها كلما ولّى مساء، بل أردتُها كتلة متأججة تتفتّقُ عطراً ومعرفة وأنغاماً وألواناً تَلفني لَفّاً وثيقاً فأعبُّ منها بحسّي وعقلي وروحي.

ما أمسكتُ كأساً إلا اشتهيتُ عصرها في دمي، ولا شممتُ عطراً إلا شئتُه فوّاحاً في صميمي، ولا أبصرتُ حُسناً إلا وَدَدْتُه لو يُلازم روحي. لا أريد أن تُحسَبَ الحياةُ عليّ أياماً لم أعِشْها حتى الطفاف.

(من رواية "قلق" ١٩٦١)

من النفق الدامس الطويل الذي يمر به لبنان، خلاصُنا رهنٌ بصمودٍ لا يُهاود في الداخل وحضورٍ مشرق في الخارج. الصمود بالإيمان والقلم والنار والحضور بالخلق والإسهام في حضارة الإنسان. بقدر ما يحطّ بنا المرتهَنون الذين يُقزّمون لبنان بالهمجية البهيمية، يرفعنا المبدعون الذين يُعَمْلِقون لبنان بالمشاركة في تشييد صروح الفكر والجمال.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

إن بلداً قام على صخرة ستين قرناً من الحضارة وملأ رئتيه من شموخ الأرز وتمرَّس على صلابة السنديان لا تزعزعه عاصفة هوجاء. وما أكثر العواصف التي هبت عليه ثم أشرقت الشمس من جديد على رونق تجلّى أكثر فأكثر. تِبْرٌ يجلوه التراب ولا يَطويه في ثناياه.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

عظيم أن نتغنى بروائع أسلافنا في خدمة الحضارة، لكن الأعظم هو إكمال الرسالة لأن النوم على غار الماضي قد لا تعقبه صحوة. وخير تكريم للسلف هو أن يتفوَّق عليه الخلف. سلاحُنا الأقوى كان ويبقى سلاح الفكر والجمال بوجه الغوغائية التي تحاول أن تشدَّنا إلى الوراء.

أمثالنا

جيل اليوم قلما اعتمد الأمثال في كلامه أو في أدبه. أما جيل الماضي فكانت الأمثال تتلاحق في حديثه فتختصر المسافات لأنها بليغة التعبير وتصيب وتراً واعياً مشدوداً إلى لاوعي عميق. مدارسنا قلما تعنى بالتراث لأن برامجنا المحصورة بالتوصيل إلى الشهادة عن أقرب طريق، غريبة عن هذا التراث، ولو عُنيت بالتراث لكانت غَرست في عقول الناشئة أمثالاً رائعة تُكوِّن بمجموعها ثقافة عامة ودربة خلقية وتربية مدنية وقومية تُغْني سطورها القليلة عن عشرات الكتب.

ما أروع هذه النماذج من أمثالنا: حب الوطن قتّال؛ هَيّي الجار قبل الدار؛ ما بيقرقع بالدست إلا العضام؛ لا تقول فول تا يصير بالمكيول؛ الدارس غلب الفارس؛ البير الفاضي ما بينتلي من الندي؛ خلّي قرشك الأبيض ليومك الأسود؛ حفاظ عتيقك جديدك ما بيدوم.

لكن بين أمثالنا ما ينبغي مَحْوُه من الذاكرة الجماعية لأنه ينمُّ إما عن استسلام أعمى لمشيئة حاكم مستبد تُذكِّرنا بالنير العثماني، وإما عن دناءة في سبيل الكسب على حساب العنفوان. ما أحط مثل هذه النماذج التي ليست خليقة بشعب تحدّى الغزاة شامخ الرأس: الإيد الما فيك تطالها بوسها وادعي عليها بالكسر؛ حاكمك وربك؛ الأرض الواطية بتشرب مَيِّتها ومَيّة غيرها؛ معك قرش بتسوى قرش.

متى تبدأ مدارسنا بتعليم التراث في أصوله الحضارية مدركة أن هدف التربية الأبعد ليس في تكديس المعلومات بل في تنشئة إنسان مواطن حر سليم الذوق منتظم الرأس قادر على الإبداع.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

مِن الناس مَن يعيشون أمواتاً ومنهم الأحياء في ظلام القبور.

ركائز الحداثة في الشعر

– الإقلاع عن السرد والتقرير والقول المباشر.

– اعتماد الإيحاء التاريخي أو الأسطوريٍ أو الرمزي لتكثيف الفكرة وإظهار البُعد الثالث في القصيدة تدليلاً على وحدة التجربة الإنسانية المتراكمة عبر الزمن.

– نقل الفكر المخثّر بالصورة الحية الموحية لإدناء الرؤية الشعرية من الواقع المعيوش.

– إثارة مشاعر القارئ كلها لا عقله فقط.

– اختيار العبارة الأليفة التي تعيد المفردة إلى بكارتها ونضارتها العفوية وشحنها بدفع يُبرز طاقتها الانفعالية والإيحائية.

– الإفادة من العلوم الحديثة، لا سيما علم النفس في كشف اللاوعي، ومن تطور الفنون الجميلة.

– الرؤيا التي تنفذ إلى ما وراء الأشياء المحسوسة لتكتشف روابط جديدة بينها وبين النفس بواسطة الكلمة المُشِعّة أو الصورة المتفجرة باللون والنغم.

– الحرص على الموسيقى الضمنية من خلال تآلف الحروف والألفاظ وتلاؤم أصواتها المركّبة في تيار نغمي يتَّحِد بالموسيقى الداخلية الخفية بحيث يتم تَوافُق الإيقاع اللفظي مع الإيقاع المعنوي.

– رؤية الأشياء لا كما هي بل كما تتكوَّن بإسقاط الذات عليها.

(من دراسة عن خليل حاوي،

في سلسلة شعراء لبنان ١٩٩١)

كل إنسان بلسان

غايةُ الترجمة نقلُ نص من لغة إلى لغة، ولا بد للمترجم أن يكون ضليعاً في اللغتين لكي يُتقِنَ العمل، فأكثر الترجمات الحديثة نقلٌ حرفي للنص دون روحه مع أن الترجمة هي إعادة خلق في جو المؤلف. وأحياناً يخالف المترجم النص لكي يكون أميناً لروحه بل يتخذ نقيض العبارة الحرفية ليؤدي مضمونه الحقيقي.

الترجمة الببغائية الحرفية خيانة للمؤلف وتشويه للنص. إن للترجمة أهمية في التربية فهي تعوِّد على ضبط العبارة وبالتالي على الكتابة الصحيحة والتعمق في جوهر اللغة. إنها تروِّض العقل. على المدارس أن تعيد للترجمة اعتبارها في البرامج، هذا إذا شاءت أن تعلّم الكتابة ولا تكتفي بحشو الجماجم وإعطاء الشهادات وجباية الأقساط.

في خصائص التعليم في لبنان منذ فجر التاريخ تعدد اللغات وقديماً قيل كل إنسان بلسان أي الرجل الذي يعرف خمس لغات مثلاً يساوي خمسة رجال. وكذلك المرأة طبعاً.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

اللبناني إبنٌ بارّ لطبيعته الزاهية السمحاء، تأثر بعواملها وأجوائها وانفعل بها، فإذا هو أنيسٌ على بساطة، صلبُ الإرادة على صورة الصخر والسنديان، حريصٌ على قِيَم الكرامة والحرية والعنفوان. وتراثُه الشعبي، وليدُ اختبارِه ونظرتِه إلى الله والحياة والكون، يُجسِّد هذه الخصائص.

(من كتاب "التراث الشعبي اللبناني" ١٩٩٤)

زارِعُ الريح لا يحصُدُ إلا العواصف

أظهر استفتاء للرأي أجرته النيويورك تايمز حول أنجح الروايات في الولايات المتحدة، المعَدّة للإخراج السينمائي، أن الأربع الأُوَل مِحوَرُها العنف. العنف في ألوان شتى: مغامرةُ اقتحام من أجل سرقة وانتقام، معركةٌ وهمية تسيل فيها دماء، مجزرةٌ سببُها غرام فاشل... وتتوقف هذه الروايات عند تصوير مَشاهد العنف وإبراز تفاصيله، وقلّما تُحلِّل أسبابه ونتائجه، كأنما العنف ظاهرة طبيعية شأنه شأن هزة أرضية أو إعصار أو انفجار بركان.

من خصائص المدنية، أنها مدرسة ترويض للإنسان وتحريره من حيوانيته الغريزية، مدرسة أنْسَنَةِ الإنسان بحيث يعتمد العقل بدل العضلات، والحوار بدل الاقتتال. فهل تخلّت المدنية عن خصائصها فحنّت إلى العودة إلى البربرية، إلى شرعة الغاب؟ العنف نتيجة اجتماعية لا ظاهرة طبيعية. إنه وليد حرمان يعيد الإنسان إلى بدائيته، فيثور ويتمرد ويصرخ ويقتل ويتشفّى بخمرة الدماء حتى الانتشاء. فما سبب هذا الحرمان؟

أسبابه شتى وأهمها أن الإنسان هو في الأصل إبن الطبيعة وجزء منها، جزء من الأرض، من الهواء، من الزهر، من الشجر، يجد نفسه بعيداً عن الحياة الطبيعية، تماماً كالخضار والثمار التي تولد وتموت تحت خيام اصطناعية. إنه يحيا حياة اصطناعية فلا يمسّ التراب ولا يتنفس الهواء البكر ولا يرى الشمس الصافية ولا يشرب الماء النابعة تحت صخرة. يعيش في ناطحات سحاب ويأكل ويشرب من معلبات. أصبح غريباً عن حقيقته التكوينية لأنه ما استطاع أن يتحوَّل بعد إلى أداة في الآلة التكنولوجية

الحديثة الجبارة. من هنا ثورته وتمرده وعنفه. ومن هنا ميله إلى ما يصوِّر العنف لأن هذا التصوير يحرك في لاشعوره وتراً حساساً ويلبّي فيه حاجة الإدمان.

الخطر في هذه الروايات الرائجة أنها ستتحول أفلاماً وهذه الأفلام ستصدَّر إلى العالم بأسره، إلى كل بيت، وستظهر على الشاشة الكبرى كما على الشاشة الصغرى. وستلقى جمهوراً مشوقاً إلى ما يثير الأحاسيس القوية. ولبنان سبّاق إلى الجديد، وأفلامُ العنف هي الأروَج.

معلوم أن العنف يولِّد العنف والإرهاب أينَعُ ثمار العنف. فلئن شاءت الدول الغربية أن تكافح الإرهاب فلتبدأ من نقطة الانطلاق. فلتبدأ بحملة على ما يُكتب ويصوَّر ويذاع عن العنف وتعمل في المقابل على تخفيف الوطأة السكانية في المدن لكي يعود الإنسان إلى الأرض، إلى الطبيعة، إلى الجذور ويشفى من مرض الحرمان الذي يتفاقم فيصبح عنفاً ثم إرهاباً.

أما قيل قديماً: مَن زرع الريح حصد العاصفة؟

لماذا لا تشجَّع الكتابات والأفلام التي تدور حول اللاعنف؟ فيلم "غاندي رسول اللاعنف" مثلاً كان له رواجه الفريد وكذلك الأفلام التي تناولت سِيَرَ الأنبياء. الكسب المادي الحلال طالما أنه لا يسيء إلى جوهر الإنسان ويؤدي إلى هدم المجتمع وبالتالي يسير بالحضارة إلى ضريح في ناطحات سحاب.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

كتابة على الماء

ما أنْ يَروج زيٌّ فني أو أدبي في العالم حتى نتسابق إلى تقليده، تماماً كما يقلّد الخياطون الأزياء النسائية التي تتغير كل فصل. الأدب أو الفن الحق، وإنْ انطلق من فصل معيَّن، فإنه يتجاوز هذا الفصل ويبقى. أما ما انتهى منه مع الموسم فهو ما كُتب على ماء أو رُسم في الهواء.

بالأمس درجت موضة النثر المكسَّر فأَطلَق عليه اسمَ الشعر مَن عجز عن كتابة النثر الصحيح مع أن الشعرَ شعرٌ سواء جاء منظوماً أو حراً أو مرسلاً لأن المضمون يفرض الشكل. أما إذا لم يكن ثمة مضمون فلا معنى لأي شكل وتبقى الشعوذة التي توهم بالعمق حيث يعوي الخواء. قالت مي زيادة "إني أكره التقليد لأنه يمسخ المقلّد ويشوِّه المقلَّد". وقال الرسام الكبير روبنـــز يوم أطلق أحمره الصارخ الحار وأخذ عليه النقاد جسارته الخطرة "أفضّل أن أكون مبدعاً من الدرجة الخامسة على أن أكون مقلّداً من الدرجة الأولى".

المهم أن نفهم أن الخبز المستعار أو المسروق لا يلذ ولا يشبع.

خذوا خبزكم كفاف يومكم من تراثكم الإنساني العريق ولَوِّنوه باختباركم الذاتي الحي وكونوا أنتم فيما تكتبون أو ترسمون أو تعزفون وإلا لن تكونوا. لا مكان للتقليد الأعمى والاقتباس العشوائي في سجل الإبداع.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

المهم أن يدرك الناقد تلك الشعرة الدقيقة الفاصلة بين الشعوذة والإبداع.

لبنان يبقى ما بقي المؤمنون بوجوده واحة حرية وسلام في صحارى تعصف بها رياحٌ سَموم.

فيما المرأة في بعض أنحاء العالم، ومنها لبنان، تُنافس الرجل في العِلم والفن والأدب والسياسة والأعمال وتتفوّق عليه أحياناً، نراها في أنحاء غيرها مرغَمة على التقهقر حتى التَشيَؤّ أي أن تصبح شيئاً ما من أشياء الرجل، سلعة، متعة، ألعوبة، آلة تفقيس، أو حاضنة أطفال، أقل من قطعة ديكور في المنــــزل.

قطار امرأة هناك ينطلق إلى الأمام نحو الكواكب وقطار مقابل يسير بها إلى الوراء نحو عتمة التاريخ.

نفخ في رماد

الحرية لا تتنافى مع توجيه التخصص الجامعي، إذ أن التوجيه لا يَعني التقييد ولا الكبت. إن تَعاظُم الاختصاصات النظرية على حساب الاختصاصات العملية يولّد خللاً رهيباً في التوازن يؤدي إلى تَفَشّي البطالة وازدياد هجرة الأدمغة وتَكاثُر اليد العاملة الأجنبية، وبالتالي إلى الانهيار الاقتصادي والاجتماعي ثم الكياني.

أما العلاج فلا يمكن أن يكون إلا بتشريع سياسة إنمائية عامة توجِّه السياسة التربوية على ضوء العرض والطلب ومقتضيات العصر. إن المؤسسات التي تُعنى بالتوجيه المهني أكثر من أن تُعَدّ. لكنها كمعظم مؤسسات الدولة جُزرٌ مزروعة في أوقيانوس لا جسور بينها. لقد حان أن تُمَدَّ الجسور. حان الربط بينها في سبيل تنسيق أعمالها وتعزيز فعاليتها بحيث يتعادل التخصص المهني مع التعليم الثانوي في الوظائف العامة فلا يكون النتاج اليدوي أقل أهمية من النتاج الذهني. وإلا أصبح عندنا خمسون مهندساً مقابل كل عامل. ومتى كثر الضبّاط وقلّت الأنفار في جيش من الجيوش صار الهدف محاربة طواحين الهواء.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

سلاح الفكر والجمال

لا شك أن للفنان والأديب رسالة إنسانية تتجاوز حدود وطنه إلى كل وطن. ولكن شأن هذه الرسالة شأن الشجرة: بقدر ما تعمق جذورها في أرضها الأصيلة بقدر ما تقصف أغصانها وتعلو وتزهر وتثمر. فلا أدب ولا فن يخلد من دون هوية ينطلق منها إلى الأبعد ويبقى مديناً لها بانطلاقه.

الأزهار الاصطناعية لا أرض لها فهي لا تبهر بحيويتها ولا ترنح بالشذى. يهرب الأديب والفنان إلى أين؟ سؤال لا يجوز حتى أن يُطرح. فالوطن ليس حذاء يُحتذى حين يلمع ويُنـــزَعُ حين يعلوه الغبار. الوطن قُدْسُ الهيكل تشعُّ بِوَهْجِ حُمرةٍ لها لونُ الدم الصارخ.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

جيل الحرب

رغم كل السلبيات التي خلّفتها الحرب، فإنها أفرزت إيجابيات تستحق أن تُذكر. تَعلّم جيلُ الحرب أن الاستقلال لا يُعطى بل يؤخذ ويُستحق، وأنّ للحرية ثمنَها المرهِق لكنها تستحق هذا الثمن. وتعلّم أن جذوره هي في لبنان شاء أم أبى، وأن العيش فيه تحت غطاء القنابل أهنأ من عيش الغريب في بلد غريب. وتلقّن أمثولة لا تُنسى هي أن خلاص لبنان لن يأتي إلا على يد أبناء لبنان، وأن الهوية سمة من سمات الوجه الطبيعي والمعنوي لا تزول إلا بالتشويه ولا تُبدّل إلا بالمسخ.

أما تربية الجيل الجديد فينبغي أن تكون تربية بطولية نابعة من صميم كياننا لها صفاء الماء من تحت الصخور ولها عمق جذور السنديان وشموخ الأرزة التي تتحدى العواصف والسموم الغريبة والقدر.

(من مقالات غير منشورة ١٩٨٤)

Terre refuge pour tous les damnés de la terre, à la croisée des vieux continents, creuset de leurs civilizations, de leurs angoisses…Dans cette oasis de liberté, le Libanais, habile artisan, s'amusa à créer des instruments d'échange: l'alphabet, la trirème, à bâtir la première maison, le premier temple et le premier cimetière, à décortiquer le murex afin de rendre, grâce à la pourpre, l'hospitalité plus chaude. Pacifiste et amateur de dialogues humains, il ne s'était jamais avisé à inventer une arme meurtrière. Il ne fabriqua même pas un couteau, si ce n'est pour la table ou pour le décor.

Défi à l'histoire, le Liban l'est aussi à la géographie. Il concilie admirablement les contradictions. Sa montagne altière, fixant l'azur, se baigne allègrement dans sa mer mystérieuse. À travers chaque orage qui menace ses côtes ou ses cimes, filtre toujours un soleil nouveau.

(Extrait du roman

"L'éclair et la foudre: le défi Libanais" 1979)

Écrire c'est vivre. Le sujet importe peu.

La vieillesse n'est pas un changement mais une continuité.

Penser à la mort, c'est déjà mourir. Je vie en function de la vie.

(Propos recueillis par Gisèle Kayata Eid, dans son live "Kibarouna". 2012)

Poème à Jacqueline

J'aurais voulu t'offrir des fleurs, de belles roses
Aussi fraîches que toi avant que les jours moroses
Couvrent notre Liban de deuil, de désespoir
Qui bloquent l'horizon au point de ne plus voir
Une brillante étoile à travers les nuages.
Est-ce trop avouer qu'en dépit des ravages
L'étoile que tu es éclaire nos chemins
Innonde le foyer de rayons cristallins!
Ne perds jamais espoir ma chère Jacqueline
Ensemble nous rendrons la joie à notre mine.

(1984, obtenu de la collection privée de manuscripts, preservée par Jacqueline)

أعددتُ هذه المقتطفات كتحية وفاء وتقدير للأديب الكبير، المعلم والصديق الدكتور جميل جبر. إنه علامة فارقة في مسيرة الإبداع والكلمة المنيرة والموقف الفكري والحضاري. كان يَعتبر أن فعل الكتابة هو فعلُ حياة. فكانت حياته كلها فعلاً متواصلاً من كتابة الحياة وحياة الكتابة. وكانت أحاديثه كما كتاباته شيقة وثقيفة، تعكس معرفةً واسعة بالماضي المجيد ومتابعةً دؤوبة لكل إبداع معاصر في لبنان والعالم، وشاملة مختلف جوانب الحياة وهواجس الإنسان في وطن دائم التبلور، من التفاخر بروائع مبدعيه وفرادة تاريخه ونضالات أبنائه إلى تحليل ومحاولة كنه ما أصاب حاضره من بلاء عبر نقد لاذع للفساد والقبح والتخلف والسخف وتقهقر القيم.

ما من مرة زرته وزوجته الرسامة المبدعة المرهفة والإنسانة الرقيقة الوفية جاكلين إلا وخرجت حاملة "زوادة" فيها من أطياب المعرفة ما شغلني لأيام ومن القيم ما رافقني مدى الحياة. كان يردد عبارة لكاتب فرنسي كبير يقول فيها "تكريم الأديب بقراءة أعماله". وقد بقيَتْ هذه العبارة مُنبِّهاً دائماً في بالي. وسأواصل العمل بوَحيٍ منها.

نهاد الحايك